عبده الحمولي .. زعيم الغناء في الشرق

د. محمود أحمد الحفني

لا تكون العصامية جديرة بالتخليد حتى تبدأ نفسها بنفسها مستغنية بعنصر القوة فيها عن العلل والأسباب جميعًا، وإن كانت سير العظماء خاضعة في كثير من شأنها لمقدمات من البيئة والظروف المحيطة والأوضاع الإجتماعية والنظم السياسية والمستوى الثقافي والفني. بيد أن الشخصية تسمو على الأسباب والعلل، يختفي تأثرها بها، وكأنها خلقت من لا شيء لتكون شيئًا جديدًا باهرًا لعصرها الحاضر وللعصور الآتية.

لم يكن القرن التاسع عشر ليسمح للعبقرية المصرية أن ترتفع هامتها، فالأفق قاتم والظلام مخيم. وهب أن ألوانًا من العبقريات شقت الطريق لنفسها، فما كان للموسيقى يومئذ طريق تشقه ولا جو تتنفس فيه الصعداء. ولا يعلم أحد إلا الله ما يعانيه رجال الموسيقى من الجفوة والإستبعاد عن كل ندوة عالية ووسط رفيع. وقد يتيسر الطريق أمام جاهل فينال في العلم مكان العظمة، أو إمام فقير بائس ملتصق بالتراب فيجتمع له الثراء من كل مكان، ويدخل هذا في زمرة أقطاب المعرفة وتنخرط ذاك في سلك أقطاب الثراء. ومهما يكن من أمر فقد كانت العظمة على أي حال غير مستحيلة على المكافحين المجدين. ولكنها بالنسبة لرجل الموسيقى تتطلب الكفاح مضاعفًا والجهاد متواصلًا والصبر مريرًا طويلًا

للوصول إلى الخطوة الأولى في طريق بناء الشخصية، ولا سيما في مثل البيئة التي عاش بها الناس في خاتمة عصر المماليك وبداية حكم يكرر نفسه بصورة أخرى. فإذا إستطاع إنسان أن يبني شخصيته بين تلك القيود والأغلال، وأن يطلق العنان لروحه الوثابة ليحلق في جو الإبداع والإبتكار كان هو المعجزة حقًا، وكان هو عبده الحمولي».

نهضة فنية

منذ بداية القرن التاسع عشر كانت مصر قد بدأت تراجع حسابها مع التاريخ وتتطلع إلى التخلص من كابوس الظلام الجاثم على صدرها، وتلتمس لنفسها منفذًا من المظالم ومن ألوان التدهور الذي أصيب به الشرق والعالم الإسلامي معه. آن لمصر ألا تصبر على التخلف عن الأمم وهي أم المدنيات ومؤسسة الحضارات. وكان من الحوافز لها إلى النهوض تلك الجولات والإتصالات الحربية والعلمية بينها وبين دول الغرب، فكل شيء يأخذ سبيله إلى التطور ويمضي في طريقه إلى التجدد والإختراع والإبتكار. وسرعان ما وثبت مصر تنفض عنها الغبار بقوة من سواعد أبنائها ومن مواهب العبقريين فيها. وكانت الفنون في مقدمة ما أتجهت إليه المشاعر في هذه النهضة القومية الحديثة. والموسيقى من النهضة في الصميم والصدارة، ومن الفن في الذروة والقمة، لأنها المعبرة بلغتها عن لغة الحياة ولأنها هي التي تصحب القافلة في طريقها إلى المجد. فما لبثت مصر أن ظهرت بها مدرسة فنية ألتقي فيها رئيس الملحنين مُحَمَّد القباني وكبيرة المطربات سكينة وغيرهما. وإلى جانب هؤلاء أشرق الوعي الأدبي الذي

يغذي الموسيقى بتراث الشعر القديم ويعيد إلى الغناء العربي مجموعة صالحة من ثروته المشتتة. فصنف في تلك الآونة السيد مُحَمَّد شهاب الدين، وكان شاعرًا مجيدًا وموسيقيًا ماهرًا، كتابه «السفينة وقد جمع في مصنفه هذا عددًا عظيمًا من الموشحات العربية كانت عاملًا قويًا على إنعاش الفن القومي.

نشأته بطنطا

في هذه الفترة من بداية اليقظة بعد سبات عميق، وفي هذه الظروف التي لا تزال حالكة قاتمة إلا قليلًا من بصيص النور الآخذ في الإزدياد، شب عبده الحمولي» وترعرع بمدينة طنطا حيث كان مولده بها في نحو عام ١٨٤٣. وقد ولدت معه موهبة النبوغ الصوتي التي تنمو بنماء جسم الصبي الفنان رويدًا رويدًا، حتى تسامع به من حوله، وبدأ الناس يتحدثون عن صوت جديد لا عهد لهم به من قبل.

ولا شك أن الصبي الفنان قد أتخذ لصوته حللًا لفظية من الأهازيج الشعبية والأغنيات الريفية والمواليا الوطنية. إنها ثروة الريف والطبيعة الساكنة في هذه المدينة المحوطة بالمياه والأشجار، المليئة بالمساجد والمشاهد والموالد التي أستمع فيها وفي حلقات الذكر إلى أصوات المنشدين وترتيل القارئين. كان للقصائد النبوية والتواشيح الدينية بتلك الحلقات أثرها السحري الفعال في تلك الفطرة الناشئة فما أعظم ما حبته به الطبيعة في تلك الرقعة التي جمعت بين سكون القرية وحضارة المدينة.

هروبه من وجه أبيه

ما كاد أبوه المشتغل بتجارة البن يلمس الإتجاه الجديد في حياة نجله الصبي حتى ثارت ثورته وضاق ذرعًا بهذا العار الفني الذي سيلحق به وبأسرته فيسيء إلى السمعة ويصيب الكرامة في الصميم. وما لبث تاجر البن أن أنهال على ولده بالتنكيل والتنكيد والإيذاء المستمر والمعاملة النابية القاسية. وأدركت رحمة الله ذلك المسكين بأخ شقيق يكبره كان له خير معوان في محنته وخير مواس على إحتمال شدته. فإتفقا معًا، وسرعان ما نفذا تعهدهما، على أن يغادرا الوالد ويتركاه للبن يساوم فيه وللسمعة الطيبة يحتفظ بها ويصونها من خطر الموسيقى الداهم. وإذا سمعت بأن أخوين شقيقين قد أجمعا على الرحيل والإنفصال من أحب الأمكنة إليهما، ومن ظل الأبوة التي كان مفروضًا أن تكون أبر الظلال بهما... إذا سمعت بذلك فثق أن وراء الأخوين همومًا لم يطيقا الصبر عليها ففرا من وجهها إلى المصير المجهول. وهنا تتجلى العصامية على حقيقتها. فلو قد رأيتهما لهالك منظر فتيين يضربان في الأرض، فلا ثياب ولا طعام، يحمل كبيرهما صغيرهما إذا عجزت القدم وكلت الهمة عن مواصلة السير، في أرض موحشة وليال مظلمة، بين قطاع طريق ومخاطر مختلفة، في غربة وفاقة ودموع... كل ذلك كان سبيل العصامية إلى الظهور بعد كفاح مرير.

مع الأستاذ شعبان

انتهى المطاف بعبده الحمولي إلى «شعبان» فمن هو هذا؟.. إنه مهاجر من طنطا كذلك، وهو يحترف الغناء والعزف كيفما كان. وتستطيع

أن تقول إنه كان مدرسة للإستقبال والتعليم والتوجيه والتخريج، والإستغلال قبل كل شيء. فما كاد يتعرف مواهب «عبده» حتى ألتقطه وقبض عليه بيد قوية. فقد أستطلع بفراسته الفنية ما وراء تلك الموهبة من ثروة يمكن أن يستنزفها إذا أستخدم هذا الفنان بعد تدريبه والتعريف به والإعلان عنه. وكذلك صنع به. فقد مكنه من الإلمام بالفن بالقدر الذي يمكن معه إقامة أفراح وحفلات وإشتراك في سهرات. وكان شعبان هذا قد خشي أن يفلت من يده هذا الصيد السمين، ولعله لمح وجود منافسين جدد يحاولون أن يختطفوا الفريسة من بين يديه، فأسرع إلى تقييد «عبده» بالزواج من أبنته ليغلق بتلك المصاهرة باب المنافسة ويأمن على الصيد أن يطير. وفاته أن العبقرية أقوى من أن تكبل بمثل هذا الزواج المفرض المصطنع.

مع الفنان محمد المقدم

وقد ذاع أمر «الحمولي» بين الجمهور وبحكم طموحه الفني كان لا بد أن يلتمس المزيد من رسالته. فمن هو هذا المعلم الذي يقصد اليه ويستزيد من منهله؟ إن ذلك المعلم هو «مُحَمَّد المقدم» ذلك النجم اللامع في سماء القاهرة غناء وأداء، ولقد أعجب بعبده وشجعه لا على الفن وحده بل وعلى التخلص من المصاهرة المستغلة المتحكمة في كسبه وحياته. فوقعت الفرقة بين الزوج والضحية وتحرر الفنان والتحق بتخت «المقدم وأجاد ما لم يكن يحسنه من الفن المألوف في عصره. وكان لا بد له من تلك الفترة، يستكمل فيها خبرته ويستوعب الموجود في زمنه.

ولكن ما لبث «المقدم» أستاذه الجديد أن أعاد في إستغلال مواهب الفنان الفتى سيرة سلفه. إلا أن ذلك الإستغلال لم يدم له طويلًا، فقد أستيقظ وعي الموسيقار الصغير، وبدأ يتنبه لإستقلال شخصيته والثقة بمقدرته. ولم يمض عليه كبير وقت حتى أصبح له تخته الخاص بآلاته ومنشديه.

بزوغ نجمه

بدأ نجم «الحمولي» يسطع وأخذ صيته ينتشر ويأخذ سبيله إلى الأوساط الثرية وقصور الأعيان وذوي المنزلة، حتى أختصه إسماعيل بمجلسه وصحبته وضمه إلى من حوله. والذي يعنينا من هذه الصحبة هو ذلك الوسط الموسيقي الراقي من الفن التركي الذي تمكن «الحمولي» من الإتصال به سواء في القاهرة أو في الإستانة. لقد كان زعماء الموسيقى التركية وقتذاك يوجهون الموسيقى الشرقية كلها بما كان لهم من إنتاج ومقدرة ومهارة. وقد ساعدت الزعامة الإسلامية والسيطرة السياسية على التمكين لهذه الموسيقى في كل بلاد الشرق. وكانت مصر أقرب الممالك الشرقية إستعدادًا لقبول ذلك الإنتاج الفني. وكانت موهبة «الحمولي» خير مرآة أعدت لقبول جميع الصور الفنية من الموسيقى التركية وغيرها من موسيقات الأقطار العربية الأخرى. ولم تكن عملية هذه الموهبة تقليدًا ومحاكاة، بل كان الأمر أعظم من ذلك شأنًا. فإن ما كان لعبده من سمو الذوق وسلامة الفطرة وقوة الإبتكار وقدرة الإرتجال، مع حنجرة مواتية وصوت بارع مطاوع... كل ذلك ساعده على الحفظ ثم الهضم ثم الخلق والإبداع.

وكما إستطاعت "جميلة" في صدر عهد بني أمية أن تحفظ الألحان

الفارسية من سائب خاثر ثم تعربها، وأن تضعها أوضاعًا عربية سليمة تجعلها صاحبة مدرسة ومذهب جديد، فكذلك كان صنيع "الحمولي" مما أستوعبه من الغناء الشرقي عامة والتركي خاصة، حيث أخد بعد الحفظ يجدد ويمصر الموسيقى والغناء بما أظهر هذا الفن في طابع جديد أخرجه من النواح والبكاء والتخاذل والضعف إلى القوة والرجولة والطرب المشرق الباسم الذي يخلق جوًا من المرح والحبور. وقام بتهذيب ألحان التواشيح والقصائد وقدم ألحانا هي مزاج من أذواق متقابلة متلاقية دون إخلال بالطابع العربي والذوق المصري.

رسالته الفنية

كانت ثروة النغمات في مصر محدودة، وكانت الأصوات تجري في مجال ضيق من المقامات لا تتعداه، ويبقى سر اللحن على وتيرة واحدة لوقت طويل في حال تدعو إلى السآمة والملل. فأخذ الحمولي يسلك في تلحينه وغنائه سبيل التلوين والتنويع، وراح يتنقل من مقام إلى مقام ومن نغمة إلى أخرى في سير اللحن. فخرج من جمود الترديد والإطالة إلى فسحة التجديد والإنتقال والتغيير في توافق وإنسجام وبراعة تستأثر بالسمع وتملك على النفس المشاعر وعلى القلوب مواطن الإعجاب.

لم يكن الغناء المصري يصور المعاني أو يقدر الإرتباط بين الشعر والموسيقى كما ينبغي، فقام «الحمولي» بهذه الرسالة ولعب الدور الهام في إيجاد تفسير وشرح لمعاني الألفاظ بأسلوب أغانيه وحمل النغم مسئولية التعبير والإيضاح. وشعر المستمع بأن عليه أن يتابع المعاني في الأداء الفني

بما لا تستطيع الأداة المجردة أداءه، بل تجاوز ذلك إلى التمثيل فكانت معالمه وملامحه وحركاته تساعد الغناء وتفسر الأداء. وكان ذلك تطلعًا إلى الموسيقى المسرحية التي كان له الفضل في توجيه صديقه الشيخ سلامة حجازي إليها.

قلما عرف أحد في تلك الآونة منطقة صوتية رحيبة الجنبات كالتي تمتع بها الحمولي» بين المغنين. وما أشبه تلاعبه في حنجرته القادرة بأصابع «بجانيني» في حركاتها على الكمان تلك الحركات التي أعجزت عصره وجعلته الفرد المثالي بين أنداده. لشد ما كان يكافح العازفون على تخت عبده في ملاحقته صعودًا وهبوطًا، والسير معه في تعاريج النغمات وإلتواء المقامات، وهو يتسرب من بعضها إلى البعض الآخر في مهارة ودقة وتفوق طالما أعجز الآلات في منطقتها الصوتية المحدودة من ملاحقته والتجاوب معه.

إن تفرد "عبده" في مكانته الموسيقية أتاح له فرصة الإنتاج المركز المتواصل من إبتكار وتصرف وبديهة حاضرة لها مقدرة الإرتجال والتصرف المفاجئ الذي يفوق الإستعداد والتحضير.

ومن طرائف ما يروى في إرتجاله حادثة أشبه بالقصص الخيالي منها بالوقائع. جهز سرادق فخم لبعض حفلات الزفاف وأعدت لذلك بطاقات الدعوة تحديدًا للعدد وتفاديًا من الزحام. وكان ثمة حاجب لا يسمح بالدخول لمن لا يحمل بطاقة. وحدث أن دخل رجال التخت وأستعدوا للحفل، وحضر «عبده» متأخرًا عنهم فطالبه الحاجب ببطاقة الدعوة وهو لا يعرفه ونشأ بينهما أخذ ورد أحس به الجمهور ومعهم صاحب العرس.

فحملوا الفنان الكبير وأجلسوه مع أصحابه في صدر السرادق. فما أسرع ما أرتجل موالًا» لمس فيه الموضوع، وأستغل الحادثة فأضفى عليها من يراعة فنه ما يجعلها صالحة للغناء، وخلق منها موضوعًا وجدانيًا جميلًا جديرًا بالتقدير والتحليل، فقال:

ليه حاجب الظرف يمنعني وأنا مدعي

لري روض المحاسن من دما دمعي

كم أفتكر في إحتجابك وأشتكي وأنعي

سلمت بالروح ورضيت بالملام والنوح

قول لي بحق المحبة ما سبب منعي

عبده وألمظ

ولم يكن أحد من المعاصرين يساميه في المنزلة الفنية سوى الفنانة البارعة «ألمظ. كانت تجري معه في منهاجه، وتعزف الصوت على قيثارته، وإن كان لها مدرستها وأسلوبها النسوي في الغناء، وقد بدأت المنافسة بينهما ردحًا من الزمن قليلًا. وسرعان ما هدأت تلك المنافسة لأن باعثها الفن الجميل، ولا يمكن أن يكون الفن مثار حقد أو كراهية، كما قد يحدث في بعض الأحيان من صغار النفوس. بل أستحالت المنافسة إلى تجاوب قلبي أستخدم فيه الغناء على أن يكون مطارحة غرامية أفاد منها الفن والمستمعون إليه. كانت هذه المطارحات في ليالي الأفراح الساهرة التي

يلتقيان بها، وبينهما حجاب مسدول أن منع الرؤيا والمشاهدة فلن يمنع الإستماع إلى الأصوات. كان هو يغني للرجال بينما تختص هي ببنات جنسها. ويتبادلان معا أدوار الغناء على التعاقب، ولكل منهما «المطيباتي» الخاص به. وكم كانت هذه المنافسة مجال تسابق وإرتجال، وخلق وإبداع، ثم تشوق وتعلق. وما أسرع ما أصبح المغنيان شاعرين مبدعين يناجي كل منهما الآخر في غنائه بشعر لا يقل في روعته عما كان يصنعه لهما إسماعيل صبري والشيخ علي الليثي والسيد مُحَمَّد الدرويش وغيرهم من أقطاب الشعر.. وقد سمعها «عبده» في إحدى تلك الليالي الساهرة وهي تغني:

يا سيدي أنا أحبك لله وربنا عالم شاهد

لا صبر على أحكام الله لما يبان لي معاك شاهد

خبط الهوى ع الباب، قلت الحليوه أهو جالي

أتاري الهوى كداب يضحك على القلب الخالي

فما كان منه إلا أن غناها إرتجالًا الدور الآتي:

روحـــي وروحـــك حبايـــب مـــن قبـــل دي العـــالم والله

وأهـــــــل المـــودة قرايـــب الخ... الخ... الخ...

وبعد أن كانت تضمهما أفراح المتزوجين، ضمهما فرحهما وحفل زواجهما. وكانت طليعته ليلة فخمة عظيمة أجتمع لها أقطاب الفن إحتفاء بأكبر علمين من أعلام الغناء المصري يلتقيان في قران سعيد. وإذا قيل

"عبده" و"ألمظ" فالنجوم لهما تبع والفن لإسميهما نشيد. فهذا هو أحمد الليثي كبير العازفين بالعود وإبراهيم سهلون أمير الكمان ومُحَمَّد خطاب شيخ الآلاتية وغيرهم من أساطين الفن يحتشدون في ليلة الزفاف. وهذا هو عبده» نفسه يغني لنفسه ويطرب المدعوين ويحييهم ويشركهم في ليلته التي جاد عليه بها الزمن الضنين.

إلا أن زواجهما هذا كان خسارة على الفن فقد سكنت البلبلة الفريدة وأحتجبت بزواجها عن قبول إقامة حفلات العرس. أما هو فقد أصبح تاجرًا يبيع الأقمشة إلى أجل ويغني متبرعًا بغير أجر. ثم لا تمضي سنتان حتى تذهب تجارته وتفدحه الديون فيعود إلى المهنة يسترحمها ويستجدي كفها السمح المعطاء، فتعوض على أبنها البار كثيرًا مما خسر.

ولم تشأ الأقدار لتلك السعادة الزوجية أن تدوم فتوفيت سكينة المشهورة بألمظ زوج عبده الحمولي، قرينته الوفية المضحية. وكانت لوفاتها كما كان لعرسها ضجة أدبية إشتركت فيها الموسيقى والشعر. وبدا لنا أن الزوج كان وفيًا وأن سعادته بها لم تكن قاصرة على الأيام الأولى، بل كانت عشرة هنيئة قدرها هو وحزن عليها، فبدأ يغني بعد وفاتها:

شربت الصبر من بعد التصافي

ومر الحال ما عرفتش أصافي

يغيب النـــــوم وأفكاري توافي

عدمت الوصل يا قلبي على دور

على عيني بعاد الحلو ساعة

ولكن للقضا سمعًا وطاعة

لأن الروح في الدنيا وداعة

عدمت الوصل يا قلبي على

مصائب الفنان

ولم يكن «عبده الحمولي» بمعزل عما أصاب النابغين في كل عصور التاريخ من نكبات وآلام. ولكي يكون واحدًا من هؤلاء الأفذاذ لا محيص له من تجرع الكأس المريرة التي ذاقوا بها الهموم والأكدار. وقد فاز «الحمولي» بنصيب الأسد من ذلك... طارده أبوه صغيرًا، وأستغله المعلم شعبان صبيًا، وأحتكره المقدم فتى، وحاربه زملاؤه بعد ذلك رجلًا وفنانًا، ثم قسى عليه القدر فأفقده " ألمظ" ثم أمعن القدر في قسوته فسلبه فلذة كبده من زوجة ثالثة وهو في ملابس العرس وأفراح الزفاف. فخلقت تلك الجراح القاتلة من المغني شاعرًا يصور الكارثة أفدح تصوير لمأساته في ولده محمود فيغني مرتجلًا:

ليــه يا عــين ليــه ليــه يا عــين يا حليوه يا نور العـــــــــين

كبدي يا ولدي آه يا جميل يا جميل

لمـا رأيـت البـدن داب مـني ودمـع عيـني بعـد أن نشـف مـني

كبدي يا ولدي آه يا جميل يا جميل

ومما غناه في مصابه أيضًا:

زاهـي جمـالك فتـني لمـا بـدأ نـور جبينـك

ونبـل ألحاظـك تجـرح مـن سـهم قـوس حاجبينـك

كبدي يا ولدي

إحسانه إلى الفقراء

وكانت تلك الآلام الفادحة الأستاذ الأول للعصامي الفنان فجعلت منه رجلًا تقيًا متعبدًا يقيم الصلوات لأوقاتها فيا لها من موسيقية تذكرنا بما كان في عهد بني العباس – حيث العصر الذهبي للغناء العربي – من قيام طائفة من الموسيقيين الممتازين الورعين الأخيار الأبرار. إلا أن عبده أمتاز بغناء ليس فيه حرص «الموصلي». فقد كان "الحمولي" ذا كرم وسماحة ومروءة وإيثار، حتى بلغ الحديث عنه ما يشبه النوادر. ولا ريب أنه في ذلك أنبل وأشرف من أرباب الثروات الذين ينفقون ما لا يخشون خسارة فيه. أما هو فقد كان ينفق من كسبه اليومي، ويعطي كل ما في يده للفقراء ولمن أفتقروا بعد غني. جاد مرة لمدين بخاتم من زمرد في قيمة ألف جنيه حين لم يجد من المال عنده ما يسد حاجة المدين حين ألتجأ إليه. كما ترك إقامة حفل لغني بخيل وذهب فغنى في فرح رجل فقير قدم له الغناء وأنفق تكاليف العرس على حسابه الخاص. ولم تكن هذه وحدها بل لقد أقام

عشرات وعشرات من حفلات غنى بها وجمع فيها النقود لأصحابها، فأغاث فقيرًا بائسًا، أو أعان صديقًا مال به الدهر، حتى لقد جلس إلى جانب بائعة بائسة في الطريق المؤدي إلى شارع شبرا الآن ونادي بسلعتها في صوته الرخيم حتى أمتلأ الطريق بعربات الأعيان وتدفق المال سيلًا على البائعة البائسة، وعادت إلى منزلها وهي من أصحاب الثراء.

ومن خير ما يؤثر عنه إرتفاعه بنفسه وبالموسيقيين ودأبه المتواصل على إعلاء نظرتهم إلى فنهم ونظرة الناس إلى أشخاصهم. من ذلك أن السرأة والأعيان كأن من عادتهم أن يقذفوا بالذهب والجواهر في حفلات الزفاف والأعراس فيسرع الحاضرون إلى إلتقاطها. وهنا تتجلى نزاهة «الحمولي» وعفته وتساميه فيطلب إلى رجال تخته وتابعيه ألا ينحدروا إلى مثل ما يصنعه غيرهم من إلتقاط شيء مهما غلا ثمنه لأن الفن عنده أغلى من كل شيء.

إبداعه

ولقد أبدع "عبده" ثروة فنية من أدوار وموالياً وتواشيح وقصائد أخذت منه وحفظت عنه، ثم أصبحت بعد ذلك تراثًا يخلد أسمه ويعلي ذكراه.

ومن أشهر أدواره غير ما قدمناه:

دور مطلعة:

الله يصون دولة حســـنك عــــــلى الدوام من الزوال

ويصون فؤادي من نبلك ماضي الحسام من غير قتال

وآخر مطلعه:

مليك الحسن في دولة جماله

ملك عقلي وأفكاري وروحي

ومن تيهه أسر قلبي دلاله

وزاد في محبته وجدي ونوحي

وآخر مطلعه:

يا منيـــــــــــة الأرواح جـــــد لي بوصـــــلك يـــــوم

العقـــــــل مـــــــني راح وهجـــــر عيـــــوني النــــوم

والمـــــــدامع مطـــــــــر يا شـــــــقيق القمـــــــــر

والقلــــــب أنفطــــــــر وأزداد عــــــذولى لـــــــوم

وآخر مطلعه:

متــــع حياتـــك بالأحبـــاب أنســـــــــك ظهـــــــــر

شأن الطرب يشفي الأوصاب للـــــــي حضــــــــر

وكيـــــد زمانــك وأهنــــا وأفـــــــرح وطيـــــــب

وأنفي همــــــومك بالأكواب ســــــــعدك أمــــــر

وآخر مطلعه:

شربت الراح في روض الأنس صافي

على زهر الغصون وردي وصافي

وهنـــــاني الزمان والوقت صـــافي

سمح بالوصـــــل محبـــوبي إلي

المطر يبكي لحالي، والقمر يطلع يكيدني، وعذولي ما ربي لي

أما المقامات التي كان يجري فيها غناؤه لهذه الأدوار وأمثالها فقد كانت في الأهم: الحجاز كار والعجم والنهاوند والراست والبياتي والعراق والسيكاه والعشاق والجهار كاه.

ولقد سمعت الآذان المصرية من «عبده» جمال تصفية هذه المقامات وروعة نغماتها ورقة ألحانها في صوت سحري وألفاظ عربية وروح مصرية وإعجاز بلغ به الغناء غايته والفن الشرقي منتهى مداه.

وسافر "الحمولي" سنة ١٨٩٦ إلى الأستانة عاصمة الشرق يومئذ، فنالت مصر به سمعة عالية حملت الأوساط المختلفة على الإعتراف لها في

شخص فنانها الكبير بما هي جديرة به من مكانة. وعاد «الحمولي» مزودًا بالهدايا، وبما فوق الهدايا من تشريف وتقدير.

غروب نجمه

أما وقد بلغ هذا النجم نهاية أوجه، فقد آن له أن يحول رويدًا رويدًا إلى الغروب والإحتجاب، وهكذا بدأت الأمراض تفعل به فعلها. وداهم مرض السل صدر ذلك العبقري فنصح له الأطباء بمغادرة القاهرة والإقامة بأعالي الصعيد، حتى إذا سنحت بوادر الشفاء عاد إلى حلوان. وبها كانت نهايته في فجر اليوم الثاني عشر من شهر مايو سنة ١٩٠١ عن ستين عامًا، مثل فيها دور العصامي المؤمن بشخصيته وفنه، الباذل من صحته وعبقريته ما يسجل بمداد ذهبي بين ذوي المروءات. ولن تنسى الخدمات الإجتماعية في تاريخها ما تبرع به «الحمولي» من إحياء ليال وحفلات لخدمة الهيئات الخيرية.

وإنتهت حياته بنهاية القرن التاسع عشر، وتوارى عن الأنظار في بداية القرن العشرين لتكون تركته مدرسة كان تلاميذه فيها كل من جاء بعده، وقفي على أثره من أمثال مُحَمَّد السبع وأحمد حسنين والشيخ أبو العلا مُحَمَّد وكثيرين غيرهم، وسوف تبقى ميراثًا للجيل وتراثًا للأجيال القادمة.